

## الزقورة : أصولها الأولى وتأثيرها في عمارة العالم القديم

### د. هديب حياوي غزالة

#### رئيس قسم الآثار - جامعة بابل

تميزت ديانة وادي الرافدين في مختلف مراحل تطورها الحضاري بعبادة ظواهر الطبيعة المختلفة ، وتبلورت فكرة حيوية تلك الظواهر وما لها من تأثير في واقع الحياة المادية لذا فقد شخصت هذه الظواهر بألهة أعتقد إنها كانت حية لها القدرة والإرادة للإشراف وإدارة تلك الظواهر ، وكانت المعابد من أولى الأبنية العامة التي شيدها العراقيون القدماء للإجتماع فيها وممارسة الشعائر الدينية ، وترقى أقدم البقايا المكتشفة للمعابد الى أواسط العصر الحجري المعدني ( ٤٥٠٠ - ٤٠٠٠ ق.م ) حيث تم الكشف عن أقدم أبنيتها في قرية تبة كورا شمالاً وأريدو جنوباً ثم إزداد عدد المعابد المكتشفة في الأدوار الحضارية اللاحقة . كانت المعابد أول ظهورها عبارة عن حجرة أوصاله بسيطة لإقامة الشعائر الدينية كما في معابد الطبقات (١٧-١٦-١٥) من أريدو التي تعود الى دور العبيد وهي أول المعابد الواضحة في حضارة وادي الرافدين ، وكانت بساطة تلك المعابد منسجمة مع مستوى نمو متطلبات الحياة اليومية فقد تطور بناء المعابد تطوراً متناظراً مع تطور المجتمع فظهرت المعابد ذات التقسيمات الثلاثية منذ الطبقة الحادية عشر في

أريدو وهذه المعابد يمكن إعتبار أبنيتها من النوع التذكاري ( Monumental Building ) بسبب تميزها البارز وهي مشيدة من اللبن المنتظم على دكاك يرقى إليها بواسطة منحدرات ( Ramps ) ترابية ويمكن إعتبار ذلك بداية لفكرة الأبراج المدرجة أو ما يعرف بالزقورات ، إلا إنه لم يتم العثور على زقورات تعود الى هذه الحقبة ولكن يرى الباحث بارو إنها كانت موجودة في هذا العصر ودليله في ذلك هو تصويرها على بعض أختام هذه الحقبة . وفي الدور الشبيه بالكتابي ( ٣٥٠٠ - ٢٨٠٠ ق.م ) يظهر المعبد أكثر تعقيداً بتقسيماته الداخلية كما نجد ذلك في معابد مدينة الوركاء ذات الغرف المتعامدة على الصالة المركزية مع عدد من المرافق الملحقة . ويمكن القول إن التطور الذي طرأ على عمارة المعابد خلال العصر الشبيه بالكتابي يتمثل بالخاصيتين الآتيتين :-

- ١- بناء المعابد على دكاك وقد ظهرت مثل هذه المعابد في عدة مواقع من هذا العصر حتى يمكن إعتبارها واحدة من المميزات الأساسية للعمارة الدينية فيه .
- ٢- إزدادت الدكة البسيطة القديمة ارتفاعاً وأصبحت بطبقتين وفي هذا التطور أقتراب الى شكل الزقورات ذي الطبقات المتعددة كما ظهر في العصور التاريخية اللاحقة . ونرى ذلك في مدينة الوركاء حيث شيد في الطبقة الخامسة منها معبد على دكة من حجر الكلس ولهذا أطلق عليه إسم المعبد الكلسي ، كما إن معبد الإله أنو هناك قد شيد في هذا العصر على دكة بلغ إرتفاعها خمسين قدم وعرف هذا المعبد بإسم ( المعبد الأبيض ) ، وفيما يخص زقورة مدينة الوركاء الكبيرة في منطقة ( أي-أنا ) والتي يعود زمن تأسيسها الى عهد سلالة أور الثالثة ( ٢١١٢ - ٢٠٠٤ ق.م ) فقد تم العثور تحتها على بقايا دكة تعود الى العصر الشبيه بالكتابي ،

وهذه دلالة على الصلة الوثيقة ما بين دكاك ذلك العصر وبين زقورات العصور التاريخية اللاحقة من ناحية تطور هذه من تلك . ويعني هذا إن هناك تطوراً تدريجياً واضحاً في عمارة العراق القديم فيما يخص بناء الزقورات حيث يمكن تمييز المراحل على التسلسل الآتي :-

- ١- بناء المعبد على الأرض المنبسطة في طوري العبيد الأول والثاني .
- ٢- بناء المعبد على دكة بسيطة في طور العبيد الثالث .
- ٣- في المرحلة الثالثة من البناء تطورت هذه الدكة لتصبح مؤلفة من طبقتين في العصور الشبيهة بالكتابي وثلاث طبقات في العصر السومري الحديث ( ٢١١٢ - ٢٠٠٤ ق.م) .

٤- أما في المرحلة الرابعة فقد أصبحت طبقات الزقورة من أربع الى سبع طبقات إذ كانت الطبقات السبع هي المرحلة الأخيرة في تطور الزقورة . وأوضح مثال على ذلك هو زقورة بابل في العصر البابلي الحديث . ومن الجنوب ينتقل بناء الزقورات الى الشمال فشييد الآشوريون زقورات عديدة عبر تأريخهم الطويل ، ووفقاً للنصوص الكتابية فتعتبر زقورة آشور هي أقدم زقورة شييدت في بلاد آشور من قبل الملك أوشيبا ( Ushipa ) الملك السادس عشر في قائمة الملوك الآشوريين ثم تتابع بناء الزقورات في العهود الآشورية الثلاثة . وتعتبر السلالم المشيدة مع الزقورة أساساً مهماً في فهم تطورها وقد كان أورنمو ( ٢١١٢ - ٢٠٩٥ ق.م) صاحب الفكرة المطبقة في تشييد ثلاثة سلالم إثنان منها جانبيان يبدآن من الزوايا الخارجية لأحد الأضلاع ويرتفعان الى الداخل الى وسط الضلع فيلتقيان في نقطة عند مستوى الطبقة الأولى ، أما السلم الثالث فإنه ينطلق من نقطة بعيدة عن نفس الضلع وعمودياً على منتصفه فيلتقي السلمان السابقان في نفس المكان عند الطبقة الأولى . وعموماً تشترك الزقورات بوجود عدد من الحجرات والمرافق بالقرب من قواعدها ويحيط بها سور والى جوار ذلك المعبد السفلي . ويمكن القول إن هذا البناء

المدرج وفي ضوء التطورات المتسلسلة التي مر بها وعلى ما بيناه ، إبتكار عراقي ، ومن ثم تراثاً عراقياً بحتاً . ومن الجدير الإشارة هنا الى أن عدد الزقورات المكتشفة حتى الآن في العراق القديم يبلغ حوالي ثلاثين زقورة موزعة على المدن من أقصى جنوب القطر الى أقصى شماله وفي بعض الأحيان توجد زقورتان في المدينة الواحدة كما في الوركاء وأحياناً يوجد ثلاث زقورات كما هو الحال في مدينة كيش وآشور وإن تعدد الزقورات في المدينة معناه تعدد المعابد حيث إن لكل معبد زقورة خاصة به .

### المغزى من بناء الزقورة :-

إن وظيفة الزقورات ماتزال موضع نقاش لكن يمكن القول إنه من المؤكد إنها لم تكن عبارة عن أبراج مراقبة فلكية وكذلك لم تكن مقابر للملوك كإهرامات مصر وهناك عدة آراء طرحت لتفسير المغزى من بناء هذا الشكل المعماري ومنه رأي الأستاذ فرانكفورت الذي يرى في تلك الأبراج إنها عبارة عن مباني تؤكد على

إن هناك رابطة وطيدة بين الناس المتعبدين وبين قوى الآلهة الخفية الخاصة بالمدينة حيث كانت تلك الزقورات شاهداً على التقوى وعلى عمق رابطة المواطنة . وقد وردنا في العهد القديم إشارة حول الغرض من بناء المعبد العالي ( الزقورة ) على أنه كان لإستراحة الإله عند نزوله من السماء في طريقه الى المعبد الأرضي . فيما يشير الباحث لينزن الى أن المعبد العالي لم يكن مجرد مكان لإستراحة الإله بل إن هناك طقوساً فعلية كان يتم إجراؤها فيه وترى المدرسة الألمانية بأن الزقورة هي مسكن الإله عند نزوله من السماء ، أما المعبد الأرضي فهو مكان لظهوره الى الناس المتعبدين لسماع صلاة العبادة والبت في شؤونهم فالزقورة تمثل موضع مرور وإستراحة للإله عند نزوله من السماء الى المعابد الأرضية . وينبغي القول هنا بأن ما ذهب اليه بعض الباحثين من أن الزقورة كانت مكاناً للإستخدامات الفلكية مثل رؤية الهلال التي كانت تعتمد عليها الكثير من الأمور الدينية والدينيوية ، أو ما قيل بأنها تشكل جبلاً إصطناعية وسط السهل الرسوبي لبلاد وادي الرافدين ، أو الآلهة السومرية هي آلهة جبلية إعتادت على السكن في الأماكن المرتفعة ، هي في الحقيقة آراء بعيدة عن دواعي وجود مثل هذا البناء المدرج الذي لم يكن نابغاً من التخيلات أو من الآراء الفلسفية وإنما هو واقع فرضه تتابع العصور فعند إختيار قطعة أرض معينة لتشييد المعبد تصبح تلك الأرض ذات قدسية خاصة وبمرور الزمن إستنفدت الترميمات وتم هدم البناء وتشيد بناء محله في نفس المكان وعلى المعبد الجديد أكثر علواً عما كان عليه المعبد القديم وبتكرار هذه العملية إرتبط بناء المعبد في أذهان العراقيين القدماء بالإرتفاع والسمو فأصبحت الدكة تحت بناء المعبد مبدءاً في العمارة الدينية وأصبح في التطلع الى علو أكثر لقاعدة المعبد هو مبدءاً من المبادئ الدينية ، وبعد الوصول الى علو معين تحكمت القواعد العمرارية في أن يوضع عنصر التقسيم في تكوين قاعدة المعبد فأصبحت تتألف من أكثر من طبقة واحدة ويصبح شكلها أقرب الى الهرمي بحيث تكون كل طبقة أصغر مساحة من الطبقة التي تحملها وهذا ما جعل الطبقة العليا هي الأصغر وبالتالي أصبحت مساحة المعبد صغيرة وأضحت القاعدة المدرجة أو الزقورة تحتل الجزء الرئيس من الصورة فيما يحتل المعبد المشيد فوقها الجزء الهامشي ، وكان الحل ليس في الإستغناء عن الزقورة وإنما في أن يكون المعبد الحقيقي الكبير بجانبها في حين يبقى المعبد الرمزي في قمتها ، بهذا تكون الوظيفة الأساسية للزقورة قد إستمرت حتى آخر عصور الحضارة العراقية القديمة وأصبح الإهتمام منصباً على البرج المدرج أكثر من الأهتمام بالمعبد المشيد فوق ذلك البرج الذي أصبح مجرد غرفة بدون أسس لهذا تكون ضعيفة البناء وأول جزء يتعرض للخراب من أجزاء الزقورة ، وتبقى الزقورة شاخصة عبر العصور بعمارتها وبالهدف المتوخى منها في توفير العلو للمعبد أو بالأحرى لرمزه العلوي . ولا بد لنا من القول هنا إن تطور بناء الزقورات على شكل دكات ثم طبقات كما بينا ذلك أنفاً يدعم هذا الرأي .

## الأثر العماري للزقورة في عمارة العالم القديم

لمحة عن إتصالات بلاد الرافدين بالعلم الخارجي :-

أن البحث في إنتقال أية تأثيرات حضارية من بلد الى بلد آخر يستلزم وجود إتصالات مباشرة وذلك عن طريق التجارة أو العلاقات الثقافية أو الحملات العسكرية ، ومن الأمور المسلم بها إن بلاد وادي الرافدين المشهورة بخصوبة أرضها ووفرة مياهاها تفتقر الى الكثير من المواد الأولية التي تدخل في عملية البناء وخاصة المعادن والأخشاب ولذلك كان الحصول على مثل هذه المواد أمراً ضرورياً وهذا ما أدى الى إمتداد الطرق البرية من وادي الرافدين باتجاهات مختلفة وصولاً الى بلدان دانية وقاصية حيث نشأت شبكة واسعة من الطرق التجارية التي ربطت بلاد وادي الرافدين مع بلدان الشرق الأدنى القديم ، فهناك إشارات الى إتصالات العراق التجارية مع الخليج العربي حيث يرجع زمن هذه الإشارات الى حدود القرن الخامس والعشرين ق.م في نصوص من مدينة لجش السومرية حيث ذكرت مركز تجارية مهمة منها دلمون ومكان التي هي على التوالي البحرين وعمان . ومن هذين المركزين التجاريين تم الإتصال بأقطار قاصية أخرى كوادي السند ومنها موهنجودارو وخرابا التي أكدت على وجود بعض التأثيرات العراقية فيها كما إتصلت بلاد الرافدين بكليكييا والأناضول وصولاً الى أرمينيا وكان لبلاد الشام أهمية كبيرة في

واقع العلاقات مع العراق حيث إهتم العراقيون القدماء بهذه المنطقة لغناها بالأخشاب الصلبة المهمة في عملية البناء فنقرأ في كتابات الملوك الأكديين أقدم الإشارات الى تلك الروابط التجارية . وكان بالإمكان الوصول الى بلاد النيل من أراضي بلاد الشام عبر سيناء الى دلتا النيل وهو الطريق الذي سلكه الآشوريون في حملاتهم العسكرية في القرن السابع ق.م إذ يعتبر هذا الطريق من الطرق التي إنتقلت من خلاله التأثيرات المبكرة من العراق الى مصر . وللعراق جذور لعلاقته مع قبرص التي كانت أحد المراكز التجارية التي إستورد منها ما يحتاج من معادن وخصوصاً النحاس وكانت قبرص هي حلقة الوصل بين العراق وبين بلدان حوض البحر المتوسط ولاسيما جزر بحر أيجة وجزيرة كريت حيث تأثرت تلك المناطق بحضارة الوطن العربي عموماً وبلاد وادي الرافدين خصوصاً . وكانت إتصالات وادي الرافدين بالبلدان الواقعة الى شرقه صعبة بسبب المنطقة الجبلية الوعرة التي تمتد فيها سلسلة جبال زاغروس ، كما إن سكان هذه المنطقة كانوا من القبائل الرعوية المتخلفة التي كانت تتحين أي فرصة للإنقضاض على المراكز الحضارية في المنطقة السهلية وبالرغم من ذلك فقد تم الإتصال عبر ممرات رايات الواقع غرب

راوندوز وممر حلبجة الى الجنوب من السليمانية وممر خانقين والطريق الذي يبتدئ من الدير وصولاً الى العاصمة العيلامية ( الشوش ) بالقرب من ديزفول . هذه بعض طرق الإتصالات بين بلاد وادي الرافدين وبلدان العالم القديم وعن طريقها تم إنتقال التأثيرات الحضارية العراقية القديمة ومن بين تلك التأثيرات الشكل العماري المتميز للزقورة .

## نماذج من التأثيرات :-

يجمع الباحثون في أصول الحضارات على إن حضارة بلاد وادي الرافدين هي أقدم حضارات العالم القديم والعالم الجديد وإنها حضارة أصيلة ذات تطور مستقل حيث بدأت وازدهرت هذه الحضارة على أرض الرافدين وكانت من نتاج ذلك الإنسان العراقي القديم الذي تفاعل مع ظروفه البيئية وإن جذور تلك الحضارة تمتد في أعماق عصور ما قبل التاريخ وإنها تقدمت بخطوات تدريجية ، حيث توالت الإنجازات السياسية والإبتكارات الحضارية عبر مختلف العصور التاريخية من كتابة وقوانين وفنون وعمارة . ومادام العراق قد إتصل تجارياً مع الكثير من بلدان العالم القديم وكما بينا ذلك فقد تأثرت بعض من تلك البلدان بدون أدنى شك بتلك الإنجازات والإبتكارات التي تعددت تأثيراتها على العالم القديم في مجالات عدة . وما دمنا نتحدث عن الزقورة وتأثيراتها فينبغي علينا القول ، إن هذا العنصر المعماري بطرازه الفريد قد أحدث تأثيرات في تطور فن العمارة وعبر مختلف العصور حيث نجد تأثيره الواضح في أهرامات مصر التي ظهرت بحدود الألف الرابع ق.م ففكرة العلو والسمو والإتصال بواسطة بناء مرتفع بالآلهة في السماء فكرة مألوفة في حضارات الشرق القديم فجاء بناء الأهرامات مشابهاً لفكرة بناء الزقورة في العراق القديم ، والهرم يشترك مع الزقورة بقاعدته المربعة الشكل والتي لها زوايا قائمة ومضبوطة ويكون كل ضلع من أضلاع القاعدة باتجاه جهة من الجهات الأربعة الأصلية ، ولكن الهرم يختلف عن الزقورة في كونه بناءً ذا شكل هرمي بينما الزقورة كانت مدرجة على شكل طبقات بنائية تعلو إحداها الأخرى ويمكن الصعود الى أعلى طبقة منها بواسطة السلالم والمنحدرات الخارجية الموجودة فيها والتي تربط طبقاتها البنائية بعضها مع بعض . ولا بد لنا من القول هنا الى إن البداية الأولى للهرم كان مؤلف من عدة طبقات أو مصاطب قد يرتفع الى ست طبقات غير متساوية الأضلاع ويشبه الزقورة في شكله الظاهري وكان أول من شيد هذه الأهرام الملك ( زوسر ) من السلالة الثالثة من المملكة القديمة في مصر ثم تطور هذا العنصر المعماري الى أن وصل الى الهرم الصحيح ولكن هذه الأبنية كانت تختلف وظيفتها عن وظيفة الزقورة في العراق القديم فهي أبنية دفنية ( مقابر ) أقيمت من أجل المحافظة على أجساد الموتى من العبث بها . ولا بد لنا هنا من الإشارة الى واحدة من التقنيات العمرانية التي كان لبلاد الرافدين الفضل في معرفتها ألا وهي إستخدام طبقات من الحصران المعمولة من القصب والبردي لشد طبقات البرج المدرج وتسليح بناءه وقد طور المهندس المعماري المصري القديم تلك الأساليب وصولاً الى إنجاز الفريد في تشييد الأهرامات الضخمة . وأمتد التأثير المعماري للزقورة الى الخليج العربي حيث توجد هناك إشارات الى وجود مبان على هيئة زقورات عراقية في مناطق مناجم النحاس في منطقة العرجة في سلطنة عمان حالياً . إن من ينظر الى زقورة أور لا تخفى عليه جماليتها ورشاققتها وهو أمر متأق من التناسب في قياسات الجوانب وأوجه القاعدة السفلى فإذا أمعن النظر من قريب في سطوح هذه الأوجه بدت الأوجه وكأنها شئ يسير من التحذب أو الإنتفاخ ، وهذه الخاصية العمرانية تميزت بها العمارة اليونانية ولاسيما الأعمدة

مما يطلق عليه في اليونانية بالانتاسيس ( Entasis ) أي التحبب الطفيف الذي يظهر على أبدان الأعمدة من أجل تصحيح خداع البصر الذي تبدو فيه الأعمدة أو الجدران مقعرة لو إنها شيدت وهي مستوية السطوح . وفي بلاد إيران نرى تأثير الزقورة واضحاً في عمارتها في شاهدين ماثلين لحد يومنا هذا وهما مقبرة الملك الأخميني كورش وزقورة ( جوخة زمبيل ) من شوشة والتي يعود تشييدها الى القرن الثالث عشر ق.م . ولو نظرنا الى بلدان أبعد فنجد هناك بعض الأبنية الموجودة في الصين والتي تعود الى القرنين ١١-١٣م والتي عرفت بإسم (تايي) و (هيو) وهي تمثل قصوراً ملكية . وإذا ما صحت نظرية علماء الآثار النرويجيين في إمكانية الانتقال بحراً من مصر الى سواحل أمريكا الكولمبية فللمصريين يرجع الفضل في نقل هذا الإسلوب العماري الى تلك البلدان القاصية جداً وإن نظرة سريعة على بعض الشواخص الأثرية في تلك الأماكن القاصية يدل ودون أدنى شك على إمكانية الموازنة بين الزقورة والمخلفات المعمارية الكثيرة ولاسيما مخلفات حضارة المايا وليس بالضرورة أن يكون ذلك التأثير أو الانتقال مباشراً بل كان الانتقال بواسطة شعب آخر ولعل أقرب شبه بشكل الزقورة هو ما وجد في حضارة المكسيك وأمريكا الوسطى مما يعرف بـ ( تيوكالي ) ( Teocalli ) أي بيت الإله . ويستمر تأثير الزقورة بتقدم العصور التاريخية وهذا ما نلاحظه واضحاً في العمارة العربية الإسلامية فنشاهد تأثيرات الزقورة واضحة وعلى الأخص في ملوية سامراء فالسلم الخارجي والإرتفاع التدريجي ( على شكل طبقات ) للمئذنة دلالة واضحة على هذا التأثير بالرغم من إن قاعدة الملوية دائرية خلافاً لقاعدة الزقورة المربعة أو المستطيلة ، بينما نجد تأثير الزقورة أوضح في مئذنة جامع أبي دلف التي تشترك مع الزقورة بقاعدتها المربعة الشكل . ويمتد التأثير العراقي الى الأبنية المصرية في العصور الإسلامية حيث نشاهد تأثير الزقورة واضحاً في طراز بناء مئذنة جامع بن طولون والتي كانت ذات قاعدة مربعة الشكل ، ومما يجب الإشارة اليه هنا إن هذه المئذنة قد تأثرت بالطراز المعماري للزقورة أكثر مما تأثرت به ملويتا سامراء وجامع أبي دلف في العراق . ولا بد لنا من القول في نهاية هذا البحث إن أكثر الزقورات شهرة وأشدّها تأثيراً على العالم القديم والحديث هي زقورة أور المشيدة من قبل أور نمو ( ٢١١٢-٢٠٩٥ ق.م ) وزقورة بابل المشيدة من قبل نبوخذ نصر الثاني ( ٦٠٤-٥٦٢ ق.م) والتي ذكرت في كتب الكلاسيكيين والعهد القديم والتي بقيت بذكرها وكما تنبأ لها نبوخذ نصر الثاني حين قال متضرعاً للإله مردوخ ما نصه : (ولأن زقورة بابل أقيمت لتبقى للأبد ، أرجو أن يظل عرشي قائماً للأبد ) .